عيون الحكمة

تأليف : ابن سينا

مع

شرح عيون الحكمة

للإمام فخرالدين الرازي

ثلاثة اجزاء في مجلد واحد

الجزء الاول

موسسة الصادق للطباعة و النشر

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

اسم الكتاب:.....شرح عيون الحكمة

المؤلف :.....الشيخ الرئيس ابن سينا

الناشر:.....موسسة الصادق للطباعة النشر ايران ـ طهران

شارع ناصر خسرو تليفون ٣١٣٤٦٤٤

تاريخ النشر :.....١٣٧٣ هـ. ش – ١٤١٥ هـ. ق

المطبعة و التجليد:.....اسماعيليان

الطبعة:.....الاولى

عدد المطبوع :.....٣٠٠٠ جلد

القطع :.....وزيرى

حقوق الطبع محفوظ للناشر

هذا كتاب من نوادر التراث فى
العلم الالهى . و هو المسمى فى
لسان اليونانيين باثولوجيا. و
فى لسان المسلمين علم الكلام أو
الفلسفة الاسلامية .

التقديم للكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على النبى الأمى الكريم ، الذى بعثـــه الله رحمة للناس أجمعين ، وعلى آله وأصـــحابه الطيبين الطاهرين ، وعلى من اهتدى بهديه واتبع سنته وعمل بشريعته الى يوم الدين .

أمـــا بعد ..

فهذا هو كتاب « شرح عيون الحكمة » للامام الجليل القدر ، العظيم الشأن محمد بن عمر بن الحسين الشهير بفخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ ١٢١٠ م رضى الله عنه وارضاه . وهذا الكتاب لم يطبعه احد من قبل أن نطبعه . وهو يشتمل على ثلاثة اقسام : القسم الأول فى المنطقيات ، والقسم الثانى فى الطبيعيات ، والقسم الثالث فى الالهيات . وقد حققته لفائدة المسلمين الذين يدافعون عن الاســـلام بالأســـاليب الشائعة فى العالم عن الجدال والمناظرة . وهؤلاء مثلهم كمثل اليونانيين القدماء ، فانهم لما رأوا السوفسطائيين يقلبون الحقائق وذلك بتلاعبهم بالألفاظ ، وبكثرة تفريعاتهم فى المسألة الواحدة حتى يبعدوا المجـــادل الفاهم عن موضـــع الالزام فى المســـألة ، اضطروا الى علم ، يعـــرف القارىء والمستمع أن هذا « الشىء » يعبر عنه بكلمة كذا . وأن هذا الشىء حده كذا ورسمه كذا . وهذه المقدمات تؤدى الى نتيجة كذا . وهذا الشىء سيكون مصيره كذا ، لأنه مشابه لشىء معروف للناس ومألوف . واصطلحوا على تسميته بعلم المنطق ، وراوه صالحا فى اثبات عقائد وابطال عقائد ، فاستخدموه للاثبات وللابطال .

***

والمسلمون الأوائل لما آمنوا واهتدوا ، لم يكن هذا العلم سبب ايمانهم واهتدائهم فانه ما كان قد دخل فى الاسلام بعد . ولما ترجم المسلمون علوم اليونان ومنها هذا العلم ، اختلف المترجمون فى المعنى المراد من اللفظ اليونانى . فاضطرب المعنى ، وعسر على المسلمين الفهم فى الأيام الأولى للترجمة . فنأى عنه البعض والدليل على ذلك : أن ابن سينا والفارابى كانا على قدر كبير من فهم المعنى . ولم يتفقا على حكاية كلام مكتوب عن « ارسطو » و « افلاطون » — كما هو معروف —

***

وقد اجتهد المسلمون فيما بعد فى معرفة هذا العلم ، لما راوا اهل الكتاب على علم به . كما اجتهدوا فى قراءة كتب اهل الكتاب ، وهم يعلمون من القرآن أن بها تحريف وتغيير . وذلك لالزامهم بالدليل المسلم بصحته عندهم . والدليل على ذلك : أن « ابا حيان التوحيدى » روى فى كتابه « الامتاع والمؤانسة » أن « ابا سعيد السيرافى » ، « متى بن يونس » تناقشا فى هدف علم المنطق . وكان مما قاله « متى بن يونس » : « انه آلة من آلات الكلام يعرف بها صحيح الكلام من سقيمه وفاسد المعنى من صالحه . كالميزان . فانى اعرف به الرجحان من النقصان ، والشائل من الجانح » اهـ

ومن كلام متى يتبين أن النصارى يعرفوه ويدرسوه . ولابد لهم من غرض يعود عليهم بالنفع من معرفته ودراسته . والا ما درسوه وما عرفوه وكتب اليهود المؤلفة فى العقائد والديانات فيها ما يدل على معرفتهم للمنطق ، وانتفاعهم به فى ضبط الأفكار وتنظيمها ، فدلالة الحائرين لموسى بن ميمون وتنقيح الأبحاث لابن كمونة . وهما من الكتب التى تدافع عن الدين اليهودى وتظهر مزاياه ومحاسنه — فى نظرهما — هما كتابان فيهما أثر المنطق بين وواضح . ومن كلام ابن ميمون : « المقدمات العامة التى وضعها المتكلمون على اختلاف آرائهم وكثرة طرقهم . وهى ضرورية فى اثباته فى هذه الأربعة مطالب ، اثنتى عشرة مقدمة . وها أنا اذكرها لك ، ثم ابين لك معنى كل مقدمة منها وما يلزم عنها . المقدمة الأولى :

اثبات الجوهر . المقدمة الثانية : وجود الخلاء . المقدمة الثالثة : ان الزمان مؤلف من آنات . المقدمة الرابعة : ان الجوهر لا ينفك من عدة اعراض . المقدمة الخامسة : ان الجوهر الفرد تقوم به الأعراض التي ساصفها ولا ينفك منها . المقدمة الخامسة : أن العرض لا يبقى زمانين . المقدمة السابعة : أن حكم الملكات حكم اعدامها ، وانها كلها اعراض موجودة مفتقرة لفاعل ... الخ »

ولهذا السبب اجتهد المسلمون في فهم المنطق ، وتفوقوا فيه على غيرهم ممن تعلمه وناظر به من أهل الكتب وغيرهم . والمسلمون يقرأون كتب أهل الكتاب ، وأهل الكتاب يقرأون كتب المسلمين ، ويعرف المسلم ما عندهم ، وهم يعرفون ما عند المسلم . فابن كمونة في تنقيح الأبحاث يرد على الامام فخر الدين الرازي بعض ما كتبه في كتابه « معالم أصول الدين » وابن ميمون ينتقد الامام الرازي في دلالة الحائرين بقوله : « للرازي كتاب مشهور سماه بالالهيات ، ضمنه من هذياناته وجهالاته عظائم . ومن جملتها غرض ارتكبه وهو : « ان الشر في الوجود اكثر من الخير . وانك اذا قايست بين راحة الانسان ولذاته في مدة حياته ، مع ما يصيبه من الآلام والأوجاع الصعبة والعاهات والزمانات والأفكار والأحزان والنكبات ، فتجد ان وجوده — يعني الانسان — نقمة وشر عظيم » (١) أ.هـ ويثني ابن ميمون على « جالينوس » اليوناني بقوله : « نعم القول ما قاله جالينوس في ثالثة المنافع . قال : « لا تطمع نفسك في الباطل ... الخ »

وموسى ابن ميمون يريك في كتابه دلالة الحائرين . آراء الفلاسفة ، ويريك نقدها ، تماما كما يفعل علما المسلمين . ومن كلامه : « افتات الفلاسفة على الله تعالى في علمه بما سواه افتياتا عظيما جدا ، وعثروا عثرة لا اقالة لهم منها ، ولا ان تبعهم في ذلك الرأي . وساسمعك الشبهات التي أوقعتهم في ما افتاتوا به ، وساسمعك ايضا رأي شريعتنا في ذلك ومقاومتنا لهم في آرائهم السيئة الشنيعة في امر علم الله .. الخ » (٢)

---

(١) ص ٤٩٦ دلالة الحائرين .

(٢) ص ٥١٨ دلالة الحائرين .

ويريك فى كتابه آراء الفرق الاسلامية مع انه يهودى ماكر ، ثم ينقدها . ففى العناية الالهية التى هى القضـــاء والقدر يقول ان الراى الثالث هو راى الأشعرية من اهل الاسلام ، ثم ينقد رأيهم بقوله : « ولزم هذا المراى شناعات عظيمة فتحملوها والتزموها . وذلك انهم يقـــرون لـ « ارسطو » فى ما يزعمه من التسوية بين سقوط الورقة وموت شخص ... الخ »

***

وما من علم عند قوم الا وفى المسلمين من يعرفه سواء كان هذا العلم مفيدا او غير مفيد . على حد قول القائل :

تعلم السحر ولا تعمل به

وعلى ما قيل :

من تعلم لغة قوم أمن مكرهم

فكتب السحر والطلسمات والعزائم والبروج ، هى كتب يعرفها اهل الكتاب ويظنون ان لهم فيها نفعا ومغنما ـــ وليس فيها من النفع من الشىء ـــ ومع ذلك تراها المسلمون والفوا فيها بعدما فهموا معانيها . فالســـيوطى الامام له كتاب . وداود الانطاكى الضرير له كتاب . والرازى فخر الدين له كتاب . وغيرهم له كتب . وكتب التصوف اكثر من أن تحصى . وهى مليئة بالأساطير والخرافات المقتبسة من كتب اهل الكتاب . وللشـــيطان اتباع واعوان يوحى اليهم ، ويامرهم باظهار فكرهم . **ولابد من أن يظهر** . كما قال تعالى : « وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم ، وان اطعتموهم انكم لمشركون » (الأنعام ١٢١) وكما فى الانجيل حكاية عن المسيح عليه السلام وهو « لابد من العثرات » وعلى المسلمين ان يعرفوا كل شىء ، ثم ينفوا الباطل ويقروا الحق . وذلك بايراد شبه المبطلين كما يعتقدونها ويحكونها ، ثم يردون الشبهة ليبطلوا كيد الشيطان .

وهذا ما أقره المسلمون فى البدء . فان « ابن الصلاح » ـــ رحمه الله » ـــ لما افتى بتحريم قراءة كتب المنطق بقوله : « المنطق مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر

شر . وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع ... الخ » لم يستبح لفتواه الا القليل . وأكثر المسلمين على خلاف ما أفتى به . فالامامية يدرسونه ، وما يزال الأزهر الى هذا اليوم يدرس علم المنطق للطلاب فى المرحلة الثانوية وفى مرحلة الجامعة والدراسات العليا . وفى السنة الأولى الثانوية يدرس الطالب قسم التصورات ، وفى السنة الثانية يدرس قسم التصديقات .

والشيخ ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم رد على المنطقيين ووبخ الفلاسفة . ولرده وتوبيخه مقت بعض الناس علم المنطق وهجروا علوم الفلاسفة . **وهؤلاء الذين مقتوا وهجروا مخطئون فى فعلهم** ، لأن الذى يرد الفلسفة بحجج هو فيلسوف ، والذى ينصر الفلسفة بحجج هو فيلسوف ، **والشيخ ابن تيمية فيلسوف** . لأنه فى كتبه الفقهية والعقائدية ، استعمل تعابير المناطقة فى التقسيم وموارد انتاج القضايا . ولأنه فى رده على الفلاسفة وأهل الكتاب ، استعان بالفلسفة فى الرد .

يقول الشيخ فى كتابه درء تعارض العقل والنقل ما نصه : « والأبهرى قد ذكر فى غير هذا الموضع ما احتج به على حدوث العالم ببيان انتفاء لازم القدم . ولكن ان كان قصده بيان فساد ما ذكره « الرازى » فـ « الرازى » ذكر وجهين . وهب أن الأول ضعيف ، لكن الثانى قوى . وهو قوله : « لو كان موجبا بالذات ، ما حصل تغير فى العالم » وتحرير ذلك أن يقال : الموجب بالذات (اما أن) يراد به العلة التامة التى تستلزم معلولها ، ولو كانت شاعرة به ، (أ) ويراد به ما يفعل بغير ارادة ولاشعور ، وان كان فعله متراخيا . ومن المعلوم أنه لم يقصد افساد القسم الثانى ، وانما قصد افساد القسم الأول . فيقال : اذا كان الموجب علة تامة تستلزم معلولها ، كان معلولها لازما لها ومعلول معلولها لازما ، فيمتنع تأخر شىء من لوازمها ولوازم لوازمها ، فلا يكون هناك شىء محدث ، فلا يحصل فى العالم تغير ... الخ »

وفى كتاب الجواب الصحيح يرد على أهل الكتاب بأسلوب الفلاسفة . ومن كلامه لهم ما نصه :

« وان عنيتم بالجسم : القائم بنفسه ، او المشار اليه . لم يمتنع ـ عندكم ـ ان يكون جسما . فانكم سميتموه جوهرا ، وعنيتم : القائم بنفسه . فان قام الدليل على أن كل قائم بنفسه مشار اليه ، كان ايضا مشار اليه . وان قام دليل على انه قائم بنفسه لا يشار اليه ، كان جوهرا رجسما عند من يفسر الجسم بالقائم بنفسه . ومن فسره بالمشار اليه لم يسم عنده جسما .

فتبين انه ـ على اصلكم ـ لا يمنع ان يسمى جسما مع تسميتكم له جوهرا ، الا اذا اثبت ان من الموجودات ما هو قائم بنفسه لا يشار اليه . وهذا لم يقيموا عليه دليلا . وليس هذا قول اهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى ، وانما هو قول طائفة من الفلاسفة ، وقليل من اهل الملل وافقوهم (١) » اهـ

ومن هذا الذى قدمته يتبين : أن دراسة علم المنطق والفلسفة لابد منهما للمسلمين ، ولا يكمل علم المرء الا بهما ، ولا يكون اماما فى الدين الا من درسهما وفقههما . وشيخ الاسلام كان من الدارسين والفاهمين . وكان يدرس المنطق والفلسفة لطلاب العلم . فقد جاء فى سيرته ان بعض الطلاب قراوا عليه « الأربعين فى اصول الدين » لفخر الدين الرازى . وهو كتاب فى علم الكلام مفيد .

***

والشيخ محمد أبو زهرة يقول ما نصه فى فائدة علم المنطق :

« وان تلك الطائفة من المخالفين لا تترك الاسلام فى هدوء ، بل انها تثير حوله الريب . فلابد عن مجادلتهم . **ومن أجل ذلك تصدى لهم المتزلة من قديم الزمان** . فانه لما فتحت الفتوح الاسلامية ، ودخل الناس فى دين الله افواجا ، وجد من المتعصبين من اليهود والنصارى والمجوس من حاولوا أن يفسدوا الاسلام على اهله ، فكانوا يدسون بين اهله افكارا بعيدة عنه ،

---

(١) ص ١٥٩ ج ٣ الجواب الصحيح لابن تيمية .

ليتخذوها حجة للطعن فيه ، وكانوا يثيرون الغبار حوله من وقت لآخر . وقد تصدى للرد طوائف من المسلمين **وأخصهم أهل الاعتزال** — كما ذكرنا — فقد مهروا فى ذلك النوع من الاستدلال وعلى رأسهم « واصل بن عطاء » و « عمرو بن عبيد » وغيرهم . ثم جاء من بعدهم « أبو الهذيل العلاف » و « النظام » ثم « الجاحظ »

وقد وجدت فى ربوع الديار المصرية الاسلامية طائفة من السوفسطائية ، كانت تنتهج منهاج سوفسطائية اليونان ، مثل « صالح بن عبد القدوس » وغيره . فقد كان من هؤلاء أصل الشك فى الحقائق اللادرية والعندية . واولئك ينشرون افكارهم بين المسلمين ، ليحلوا وحدة العقيدة الاسلامية ، ويجدوا السبيل بذلك لهدم الاسلام .

لذلك كان لابد من التسلح لهؤلاء . واذا كان فلاسفة اليونان قد حاربوا السوفسطائية اليونانية بالجدل والمناقشة ، ثم بالقيود المنطقية فى الاستدلال ، كما فعل « سقراط » فى محاوراته ، وكما فعل « ارسطو » فى منطقه ، فقد حق على المسلمين أن يحاربوها بنفس السلاح الذى حارب به حكماء اليونان . فقد جرب ماجدى . **لذلك عنى المعتزلة** ومن اليهم بالمجادلة معهم ، ثم ترجم منطق « ارسطو » ماجدى فى ذلك واثمر .

وان تلك هى جدوى المنطق . **فان جدوى المنطق هى انه ميزان الحق بين المتجادلين** ، وهو الذى يبين زيف الاستدلال ، فهو بحدوده واشكال القياس المنطقى وضروب التمثيل يوضح الزيف فى القول .

ويكفى أن يوضع الكلام الزائف فى شكل قياس منطقى ، وتتعرف الحدود فى كل اجزائه ، ويعرف العموم والخصوص فى مقدماته ، ليتبين الخبيث من الطيب . ولقد شاع المنطق فى الماضى عندما شاع الجدل والتمويه واثارة الأوهام نحو أمور ليست من الحق فى شىء . ولا زال يؤدى الى غايته فى هذا المقام ، كما أدى الى غايته عندما شاع الجدل فى المسائل الاعتقادية ، والمسائل الفقهية بين أهل المذاهب المختلفة .. الخ »

والامام الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ يقول فى مقدمة كتابه المستصفى فى علم الأصول : ان من لا يعرف علم المنطق ، لا ثقة له فى علومه . يقول مانصه : « نذكر من هذه المقدمة مدارك العقول وانحصارها فى الحد والبرهان ، ونذكر شرط الحد الحقيقى ، وشرط البرهان الحقيقى واقسامها على منهاج أو جزء مما ذكرناه فى كتاب محك النظر ، وكتاب معيار العلم . وليست هذه المقدمة من جملة علم الأصول ، ولا من مقدماته الخاصة به ، بل هى مقدمة العلوم . ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه اصلا » أ. هـ.

***

ولو ان انسانا مسلما قال ان علم العروض لا فائدة فيه . بدليل أن الراهق اذا حفظ من الشعر قصائد طويلة ، وعرف معانيها ، لانشد شعرا مماثلا للذى حفظه ولو لم يعرف من علم العروض شيئا . وقال : ان علم النحو لا فائدة فيه لضبط الكلام بالضمة والفتحة وغيرها . اذا كان يقدر على توصيل المعنى للمخاطب . بدليل أن اللغة العامية تؤدى الى التخاطب والتفاهم كما هو الحال فى اللغة العربية الفصحى . وقال : ان الفلسفة لا فائدة فيها لأن الناس يريدون خبزا ولا يريدون فكرا . وقال كذلك فى علوم كثيرة ، وصاح باعلى صوته : يكفى المسلمين من العلم قرآن ربهم وسنة نبيهم . لو أن انسانا قال وصاح . لأدى قوله هذا الى تأخر المسلمين عن غيرهم من سائر الأمم . فالغزالى ابو حامد المتوفى سنة ٥٠٥ هـ لما صاح باعلى صوته وقال : ان طرق المتصوفة احسن الطرق التى تفيد المسلم فى الدنيا والآخرة ، لزم الناس الصوامع والخلوات ، وهجروا زراعة الأرض وفلاحتها . ومن المعلوم أنه كان فى زمانه « بطرس الناسك » فى دول أوربا يحرض الصليبيين على قتال المسلمين فى بيت المقدس .

***

واذكر اننى لما قدمت « القاهرة » لأدرس فى كلية اللغة العربية . وطفت شوارعها القديمة ورأيت آثار القدماء كجامع الظاهر بيبرس وغيره ، حال بخاطرى أن هؤلاء الذين بنوا ، قد ماتوا وفنوا ، وبقيت آثارهم تدل

عليهم . فلو أننا اجتهدنا ونجحنا وفلحنا ثم جاءنا الموت . ولابد من أن يجيء . فما فائدة جدنا واجتهادنا اذا كان التراب يضم الكسول والمجتهد والأمير والمأمور ؟ وعزمت على ان لا أطالع كتب العلم ولا أن أواصل الدراسة ، وعدت الى قريتي وأنا مصر على هذا العزم . وهذا الخاطر الذى خطر ببالى هو شبيه بالذى يفضل دراسة علم على علم أو يبيح للناس علما ويحرم عليهم علما غيره . كلاهما يؤديان الى هلاك . اذا كان العلمان محترمان .

وقد وجدت هذا المعنى عند اليائسين من حكماء بنى اسرائيل فقد قال أحدهم : « ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ؟ دور يمضى ودور يجيء ، والأرض قائمة الى الأبد . والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق . الريح يذهب الى الجنوب وتدور الى الشمال . تذهب دائرة دورانا والى مداراتها ترجع الريح . كل الأنهار تجرى الى البحر والبحر ليس بملآن . الى المكان الذى جرت منه الأنهار . الى هناك تذهب راجعة . كل الكلام يتصر . لا يستطيع الانسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر والأذن لا تمتلىء من السمع . ما كان فهو ما يكون ، والذى صنع فهو الذى يصنع . فليس تحت الشمس جديد . ان وجد شيء يقال عنه انظر : هذا جديد . فهو منذ زمان كان فى الدهور التى كانت قبلنا . ليس ذكر للأولين . والآخرون أيضا الذين سيكونون لا يكون لهم ذكر عند الذين يكونون بعدهم ... الخ » (الجامعة ١)

وقد عرفنا الله تعالى فى محكم كتابه بأنه لم يخلق الدنيا عبثا ، ولم يخلق الناس عبثا ، بل لحكمة خلق الله الذى خلق . ولارادة ومشيئة . وعمارة الدنيا واجبة علينا ، كل على قدر طاقته . ولسوف تكون حياة جديدة من بعد الموت فيها النعيم المقيم لمن احسن ، وفيها العذاب الشديد لمن أساء . ولو وقر فى ذهن المرء أن حياته فى الدنيا هى لخيره فى الآخرة ، لعمل وما يئس وما قنط . وطلب الرحمة والتوفيق من ربه .

***

وحجة القائلين بأن المنطق لا فائدة فيه فى البرهنة على وجود الله تعالى . ولذلك يجب أن يلغى من دور التعليم هى قولهم : ان أدلة القرآن تكفى فى البرهنة على وجود الله . وكذلك الأحاديث المروية عن النبى ﷺ . أما أن الأحاديث تدل ففيها المتواتر والآحاد . وقد اتفقت كلمة المسلمين على أن العقائد تؤخذ من آيات القرآن وحده . وأما أن القرآن يدل . فهو يدل . للذى عنده عقل سليم . وبيان ذلك : حينما قال النبى ﷺ أنا رسول الله . فلو فرض أن انسانا معاصرا له قال بقوله . فمن يدرينا الصادق منهما من الكاذب ؟ لابد من العقل السليم الخالى عن العناد والهوى ليكون مثل القاضى بين المتحاجين والمتخاصمين . فابو بكر الصديق رضى الله عنه حكم بصدق محمد ﷺ لأنه شاهده طول حياته صادقا . وعقله دله على أن من كان صادقا الى سن الأربعين ، لا يمكن ان يكذب . ولذلك آمن . وخديجة رضى الله عنها لما رأته يصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ، آمنت بكلامه . لما أخبرها به . اذ دلها عقلها السليم أن من كان على مروءة وخلق ، لا يمكن أن يضـــل لئلا تسقط مروءته وهيبته . ولما نطق بالقرآن المعجز فى لفظه وفى معناه . وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب ، حكم العقل بأن الأمى لا يقدر على هذا . وبالتالى يكون القرآن كلام الله ووحى الله . ولو أن انســـانا لا عقل عنده ، وظهر له ملاك يكلمه وجها لوجها . فانه لا تكون فائدة تذكر لا من المتكلم ولا من المستمع ، لأن العقل مفقود .

***

ولهذا المعنى اختلف علماء المسلمين فى الشرع وفى العقل . أيهما يقدم على الآخر ؟ أى أيهما يكون حاكما على الآخر . فقال قوم : هـــو العقل . لأن النبوات لا تثبت الا عند ذى عقل سليم . والعقل هو الذى يميز الصادق من الكاذب . وقال قوم : هو الشرع . لأن العقل قد يعرض له الزلل والخطأ . وليس من أحد من المسلمين القائلين بتقديم العقل أو الشرع ، يهون من قيمة الشرع أو يقلل من فائدته أو يدعو الى نبذه ليس ولا واحد . فالقائلون بتقديم العقل ما قالوا به الا من اجل صحة التكليف عـلى المكلفين .

ففى تفسير الجامع لأحكام القرآن ما نصه : « العقل عمدة التكليف ، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ، ويوصل الى تصديقه وتصديق رسله . الا انه لما لم ينهض بكل المراد من العبد ، بعثت الرسل وانزلت الكتب . فمثال الشرع : الشمس . ومثال العقل : العين » (الاسراء ٧٠)

***

هذا من جهة ثبوت النبوة . وأما من جهة نصوص القرآن ذاتهـا . فهذه نصوص لابد للعقل من ان يفصل فى معناها . ومنها نصوص المحكم والمتشابه . ونصوص التشريعات .

فعن المحكم والمتشابه ، نذكر هذا المثال :

(أ) قال الله تعالى « ليس كمثله شيء » وقال لموسى عليه السلام : « لن ترانى »

(ب) وقال الله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » وعدم المماثلة ينفى الجسم واليد . ويتعارض مع اثبات اليد . فلو سلمنا بكل الأقوال — على ظاهرها — لقال العقل : ان فى هـذا التسليم تناقض ، بين النفى وبين الاثبات . ويلزم على هذا التناقض أن لا يكون القرآن كلام الله . فكيف يوفق بين النص الذى يسلم بصحته وبين العقل الذى بين له ان النصوص متعارضـة فى الظاهر ؟ هذا هو السؤال الذى يدور حوله الخلاف بين النص والعقل . والذى من اجله الف الامام الرازى « أسـاس التقديس فى علم الكلام » ورده عليه الاعلم ابن تيمية الحرانى فى « درء تعارض العقل والنقل » فالرازى يقول : ان « ليس كمثله شيء » نص محكم . ويؤيد انه محكم : أن الله لا يرى — بضم الياء — و « يد الله » نص متشابه يحتمل اليد الجسمية ويحتمل الكناية عن القدرة . ولأنه متشابه ينبغى رده الى محكمه وهو نفى المثلية . والمناسب لنفى المثلية هى القدرة . فاذن « يد الله » معناها قدرته . هذا كلام الرازى . وابن تيمية يقول : اننا نسلم بالنصين كما وردا ونقول : « كل من عند ربنا » فنقول : ليس لله مثل وليس هو بجسم . وله يد — كما قال — لا نعلم لها كيفية ولا شبها . هذا كلامه . والعقل قد استخدمه الرازى لدفع توهم التعارض بين الأقوال . والعقل قـد

استخدمه ابن تيمية فى التسليم بالأقوال كما جاءت . وكان ابى رحمه الله على رأى ابن تيمية فى الله وصفاته . وانا اليوم على دين ابى .

وعن نصوص التشريعات نذكر هذا المثال :

(أ) قال الله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا يتربصن بانفسهن أربعة اشهر وعشرا . فاذا بلغن اجلهن ، فلا جناح عليكم فيما فعلن فى انفسهن بالمعروف . والله بما تعملون خبير » (البقرة ٢٢)

(ب) وقال الله تعالى : « والذين يتوفون منكم ويذرون ازواجا وصية لأزواجهم متاعا الى الحول غير اخراج . فان خرجن فلا جناح عليكم فى ما فعلن فى انفسهم من معروف . والله عزيز حكيم » (البقرة ٢٤٠)

فى القول الأول « اربعة اشهر وعشرا » من الأيام . وفى القول الثانى « متاعا الى الحول » وهذا فى الظاهر تعارض وتناقض . فالنص صحيح وثابت . والعقل يقول : كيف اسلم بحكمين متعارضين ومتناقضين ؟ ولدرء تعارض النصين . قال بعض المسلمين : ان القول الثانى منسوخ لا يعمل به . وقال بعض المسلمين : ان النصين غير متعارضين ، لأن النص الأول يعطى حكما اجباريا بصيغة « يتربصن » والنص الثانى يعطى حكما اختياريا بصيغة « وصية » والاجبارى لا يتعارض مع الاختيارى والعقل هو الذى حكم بعدم التعارض . والعقل ايضا هو الذى قال بالنسخ .

اما عن تعليل احكام الشريعة :

فان الله لما حرم وحلل ، بين للناس وجه الحكمة من الشريعة ككل ، هى الرحمة بالعباد والرافة بهم . وفى بعض التشريعات بين وجه الحكمة . وفى بعضها اكتفى بقوله : « ذلك ليعلم الله من يخافه بالغيب » وقد اجتهد العلماء فى تعليل الأوامر والنواهى بالعقل . مع أن العقل لا يصلح فى التعليل . لأن نصوص التشريعات ليست من النصوص المتشابهة التى ترد الى النصوص المحكمة .

ففى القرآن مثلا : **ان الله تعالى حرم نكاح البنت** . فليبحث العقل عن تعليل لهذا التحريم . ما هو ؟ وفى القرآن : أن آدم وابنيه وبناته لم يكن

عندهم محرمات فى الزواج . فلو فرضنا حالة مشابهة لأناس فى صحراء منقطعة عن العمران كحالة بنى آدم فى الزمان الأول . أو لو فرضنا العقل يقول : أيهما أولى بالانتفاع بهذه البنت ؟ الأب الذى أنفق عليها واعتنى بها ، أم الأجنبى الذى لم ينفق ولم يعتن ؟ أو لو فرضنا من يقول : ان الناس من آدم الى زمان موسى بن عمران — عليهما السلام — كانوا يحلون نكاح البنت . ولم يؤثر تحريمه الا على يد موسى ومحمد — عليهما السلام — وهكذا مكتوب فى التوراة . أو لو فرضنا من يقول للمسلمين : ان الامام الشافعى قد أباح للرجل أن يتزوج ابنته من الزنا . وتولدها من مائه فى الزنا كتولدها من مائه فى غير الزنا . فالمنى واحد والأم واحدة والتربية واحدة . وليس من فرق الا فى التلفظ بالفاظ النكاح أمام ولى وشاهدين لا تشترط فيهما العدالة . انه لو فرضنا العقل جوز هذا وقال بهذا . فانه يجب على المسلمين جميعا تقديم نص التشريع والعمل به ، واهمال العقل فى بيان الحكمة من التحريم أو من التحليل .

***

وقضية النص والعقل هى من القضايا التى بثها علماء أهل الكتاب فى المسلمين ، لينشغلوا بكتابهم عن كتبهم . فالنص عندهم مبدل ومغير . والعقل يشهد بانه مبدل ومغير . وهنا يظهر التناقض بين النص الذى يزعمون بانه لم يتبدل ، وبين العقل الذى يشهد بانه مبدل . ولهذا يقولون : هل النص مقدم على العقل أم العقل مقدم على النص ؟ والدافع لهم الى هذا القول : هو الآيات التى حكم العقل بانها ليست من كلام الله ولا من وحيه . وأخيرا قالوا : النص مقدم على العقل حتى لا يسفههم أحد بأدلة العقول . وهذه القضية لا تصلح فى ديننا نحن المسلمين . لأن نص القرآن ننسبه أحالنا الى العقل فى آيات كثيرة منها « وتلك الأمثال نضربها للناس . وما يعقلها الا العالمون ». (العنكبوت ٤٣) والله لا يحيل اليه الا اذا كان نص القرآن نفسه سالما من المعارض العقلى . ونص القرآن منقول بالحفظ فى الصدور ، وبالكتابة فى الأوراق . وليس كذلك الحال فى كتب أهل الكتاب . فاذا قلنا : النص القرآنى والعقل . سليمان ، ولا يكذب أحدهما

الاخر بأى حال من الأحوال . فان قولنا صحيح لصحة النص من جهة ـ ومن جهة اخرى . لأن الله لا يوحى بكلام لا يعقل .

***

والامام فخر الدين قد اساء الى المسلمين بشغلهم بهذه القضية المزورة . وكان يجب عليه ان لا يذكرها . وان ذكرها لا يكون ذكره لها فى اكثر من كتاب ، حتى لا يعطى لها قيمة . ولأنه شغلهم واساء اليهم ، اعتبره السلفيون الأجلاء من المارقين من الدين ، والخارجين على جماعة المسلمين ـ فابن قيم الجوزية رضى الله عنه يصفه بالمضل فى كتابه « الروح » وشيخ الاسلام ابن تيمية رضى الله عنه يؤلف ضده « درء تعارض العقل والنقل » وشيخ الاسلام ابن تيمية ـ وهو من كبار الأئمة ـ كان على علم بكتبه « فخر الدين » ونواياه تجاه الاسلام . وقد هياه الله لرد فكره وبيان غرضه . فانه لما أثرت عنه عبارات يفهم منها ان التوراة ليست محرفة بتبديل اللفظ ـ الف « الجواب الصحيح » واثبت فيه : انها محرفة بتبديل اللفظ وتغيير المعنى . ولما قال للمسلمين : ان التصوف من الاسلام وانه يوصل الى الله ، الف فى بيان أن التصوف ليس من الاسلام كتبا ، بسببها استنارت عقول المسلمين وصح فكرهم ودينهم . ولما قال للمسلمين : ان يد الله كناية عن قدرته وعينه عن علمه واستواؤه على العرش كنية عن انه مالك الملك . رد عليه فى كتب مطولة بان الخير كل الخير فى التسليم بصحة النصوص ، وترك التاويل حتى لا نقول فى ذات الله ما قد لا يريده الله من عباده . ولما الف « شرح عيون الحكمة » رد عليه الامام ابن تيمية رضى الله عنه فى كتابه «الرد على المنطقيين» وبين ان المنطق لافائدة فيه . ولما الف «المطالب العالية من العلم الالهى» ووضح فيه شبهات المعتزلة والفلاسفة والأشاعرة والشيعة فى أصول الدين وذكر ادلتها وشرحها شرحا وافيا . رد عليه الامام ابن تيمية ببيان المذهب السلفى الصحيح وحبب الناس فيه ودعاهم الى اعتناقه . وبين انه مذهب رسول الله ﷺ ومذهب اصحابه واتباعه والسلف الصالح عليهم رحمة الله تعالى ـ وهو المذهب الصحيح ـ

***

والقانون الكلى الذى ابتدعه الامام الرازى هو

«اذا تعارضت الأدلة السمعية والعقلية ، أو السمع والعقل ، أو النقل والعقل، أو الظواهر النقلية والقواطع العقلية ، أو نحو ذلك من العبارات . فاما أن يجمع بينهما . وهو محال ، لأنه جمع بين النقيضين . واما أن يردا جميعا (لتناقضهما) واما أن يقدم السمع . وهو محال . لأن العقل أصل النقل . ولو قدمناه عليه ، لكان ذلك قدحا فى العقل — الذى هو أصل النقل — والقدح فى أصل الشىء : قدح فيه . فكان تقديم النقل قدحا فى النقل والعقل . فوجب تقديم العقل . ثم النقل اما أن يتأول ، واما أن يفوض . واذا تعارضا تعارض الضدين ، امتنع الجمع بينهما ولم يمتنع ارتفاعهما » ا.هـ

هذا هو القانون . الذى الفت فيه كتب ، وهى برمتها خالية من الدليل على صدق القانون فى عرضه أو نقده .

وكان يجب على الامام الرازى أن يذكر على هذا القانون أمثلة من نصوص القرآن الكريم . فيقول مثلا : هذا النص متعارض مع العقل . فماذا نعمل فيه ؟ ويجب أن نفعل شيئا . لأننا نحن المسلمين نقول بأن القرآن كلام الله ، والله لا يعطى كلاما ينقض بعضه بعضا ، ولا يعطى كلاما لا يقبله العقل . هذا ما كان يجب عليه أن يفعله .

***

والشيخ ابن تيمية قد اطال النفس فى الرد على هذا القانون . وما اتى بامثلة على التعارض بين النص والعقل . وكان يجب أن يرد على الرازى بدليلين اثنين :

اولهما : أن يطالبه بذكر امثلة على التعارض بين النص والعقل . وليس من أمثلة فى القرآن على ذلك .

وثانيهما : أن يقول له : ان من المعتزلة من فهم القضية على وجهها الصحيح . وحلها وأزال اشكالها . وانتهت من قبل أن تخلق . فلماذا تعيدها بأسلوب يدل على التشكيك أو يدل على المغالطة ؟

وانه ليوجد فرق بين : ١ ـــ موهم التعارض ، ٢ ـــ وبين التعارض . فموهم التعارض موجود فى القـــرآن ، والتعارض ليس له وجـــود . والمعتزلة واهل السنة فى تفاسيرهم تعرضوا لموهم التعارض وازالوه . وافرد له « القاضى عبد الجبار بن احمد » كتابا كبيرا ، سماه بـ « تنزيه القرآن عن المطاعن » ذكر فيه الآيات الموهمة للتعارض ، ووفق بينها . مثل قوله تعالى : « فوربك لنسالنهم اجمعين عما كانوا يعملون » (الحجر ٩٢ ـــ ٩٣) وقوله تعالى : « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان » (الرحمن ٣٩)

وعلماء قد تحدثوا عما جاء فى القرآن وما فى التوراة من معـــانى متعارضة(١) ، واثبتوا صحة ما جاء فى القرآن . ومثال ذلك : قول القرآن ان المسيح عيسى بن مريم عليه السلام قد تكلم فى المهد وهو صـــبى صغير . والانجيل لم يصرح بنطقه فى المهد . ورد القرطبى المفسر بان المسيح قد تكلم لبراءة أمه رضى الله عنها . ولو لم يتكلم لكانت قد احرقت بالنار ، حسبما جاء فى التوراة من ان الزانية اذا كانت ابنة عالم من علماء الدين ، فانها تحرق (لاويين ٢١ : ٩) وهى قد عاشت من بعده ثمان سنوات ـــ فى بعض الروايات ـــ

***

ومشاغبات الرازى فى دين الله بالعقل ، اكثر من أن تحصى . والذين احصوها ووقفوا لردها كثيرون من اهل العلم ، ومنهم من أطال ومنهم من لم يطل . فقوله : « **ان الممكن لا يترجح احد طرفيه على الآخر الا بمرجح** » ساوى به بين العبد والرب . وخيل بالمساواة لطالب العلم : ان العبد مساوى للرب فى خلق الأفعال واعدامها . فالهارب من السبع اذا ظهر له طريقان ، والجائع اذا قدم له رغيفان ، فاختار احدهما . هـــل اختياره لمرجح أم لغير مرجح ؟ يقول الرازى : لابد من أمر فى نفســـه قد رجح له احدهما على الآخر . وقوله فى الظاهر صحيح . ووجـــه

---

(١) الفصل لابن حزم .